الفصل الرابع

النبوة والرسالة عند أهل الإسلام

- صفات الرسل وصفات الأنبياء.
- نبوة النساء.
- هل يوجد نبى مسلوب؟
- هل بلعام بن باعوراء نبى مسلوب.. أو عالم ملعون؟
- نبوة الجن.
- نبوة الملائكة.
- فى كل أمة نبى أو رسول.
- اختصاص النبوة لمنطقة معينة.
- بين النبوة.. والعلم.. والحكمة.
- العلاقة بين النبوة.. والعلم.
- وظائف الأنبياء.
- دليل ختم النبوة.
- جواز الخطأ والنسيان على الأنبياء.
- جواز تعلم الأنبياء قبل مبعثهم.
- المتنبئون.
- بين النبوة والولاية.

obeikandl.com

obeikandl.com

النبوة والرسالة عند أهل الإسلام

استنبط علماء الإسلام من خلال تاريخ الرسل المذكورين في القرآن - وهم خمسة وعشرون- شروطًا للرسالة والمرسلين ثم أطلقوها للنبوة والأنبياء.

غير أن هذه الشروط حسبما يدل عليه ظاهر النصوص لا تنطبق على الأنبياء وإنما تنطبق على المرسلين، وهذه الشروط معروفة عند علماء التوحيد والتفسير كما يلي: البشرية والذكورية والحرية والعصمة والتأييد بالمعجزة وكونها هبة من الله غير مكتسبة والبلوغ وعدم سؤال الأجر على التبليغ.

وليس في هذه الشروط ما ينطبق على النبوة تمام الانطباق غير البشرية لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾ [الشورى: ٥١].

وبشرط البشرية للنبوة يخرج كل ما أوحى الله إليه من الدواب والجمادات بخلاف الملائكة لأن الله تعالى يقول: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] ولا تكون الملائكة رسلاً، إذ لم يكونوا أنبياء حسب القاعدة السابقة لهذا فالبشرية شرط للنبوة والرسالة معًا.

أما اشتراطها للرسالة فلأن الكفار قد أنكروا أن يكون الرسول بشرًا ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ [فصلت: ١٤].

وكأنهم يحتجون بأن علو شأن الملائكة وشدة بطشهم يجعل الخلق منقادين إليهم ولا يشكون في رسالتهم فأجاب الله تعالى ذلك بقوله: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

أما الذكورية فليست لازمة للنبوة بل هي لازمة للرسالة لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩، النحل: ٤٣].

وذلك صريح في الرسالة دون النبوة ولم يرد نص في الكتاب والسنة يمنع نبوة النساء غير ما حملوا على هذه الآية ولا تحتملها.

أما العصمة فهي أيضًا في الرسالة لا في النبوة وهي حفظ الرسل من الوقوع في الكبائر من المعاصي لأنهم بمكان الاقتداء لقوله تعالى في الأنعام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] والإشارة هنا إلى المرسلين لا إلى غيرهم.

ومثلها قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

ومثلها قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ

﴿الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٦-٤٨].

كل أولئك مرسلون، أما غير المرسلين فربما وقعوا في ما ظاهره خطيئة وباطنه حكمة، كما في قصة آدم والأسباط والخضر.

أما الحرية فهى أيضًا شرط في الرسالة دون النبوة وهى أن يكون الرسل ذوى حسب ونسب من قومهم وذلك مأخوذ من قولهم: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢].

ومن قولهم لشعيب: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١].

ومن الحديث القائل: «**ما بعث الله نبيًا إلا في منعة من قومه**» ومن قول هرقل لأبى سفيان: «والرسل تبعث في أحساب قومها».

أما المعجزة فهى أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى النبوة مقرونًا بدعوى الرسالة مع طلب المعارضة المعبر عنها بالتحدى.

وفي الحديث: «**ما من نبى إلا أوتى من الآيات ما على مثله آمن البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحى إلىَّ فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تبعًا يوم القيامة**» (متفق عليه).

والمعجزة أيضًا لازمة للرسالة وليست لازمة للنبوة وذلك لأن جميع الأنبياء الذين أوتوا من الآيات ما على مثله آمن البشر كلهم مرسلون حيث

قد أيد نوح بالسفينة وأيد صالح بالناقة وأيد إبراهيم ببرد النار وأيد موسى بالعصا وأيد عيسى بإبراء الأكمه والأبرص وأيد محمد ﷺ بالقرآن.

أما عدم سؤال الأجر على التبليغ فهو أيضًا من خصائص الرسالة كما جاء في حكاية عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب في سورة الشعراء مكررًا ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٧-١٠٩، ١٢٥ - ١٢٧].

أما كون الرسالة هبة لا تنال بالكسب فهو أيضًا من خصائص الرسالة لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧].

أما كون النبوة والرسالة تنال بسؤال الله من رسول الله لمن يؤيده وينصره في أداء الرسالة فواضح من قصة إبراهيم حيث قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] فكأنما قال نعم، ولكنه لا ينال الظالمين بل ينال الصالحين منهم، وكذلك ما ورد في قصة موسى وهارون حيث قال تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩-٣٢] إلى قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

وكذلك سؤال زكريا حيث قال: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: ٥، ٦].

وكذلك ما ورد في قصة عيسى مع الحواريين إذ أن عيسى اختارهم رسلاً له فقبلهم الله مرسلين من عنده.

أما البلوغ فقد اختلف العلماء في شرطيته للرسالة لما ورد في شأن يحيى من قوله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ١٢].

ومثله في شأن عيسى من قوله تعالى: ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ [آل عمران: ٤٦].

●●●

● **صفات الرسل وصفات الأنبياء:**

لقد قرر علماء الكلام أنه يجب إثبات أربع صفات للرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام وهى الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة.

ومنذ قرر العلماء إثبات هذه الصفات للرسل جعلوها من خصائص الرسالة والرسل، ثم جعلوها من خصائص النبوة والأنبياء.

أما الصدق فهو الإخبار بما يطابق الواقع في دعوى الرسالة، وفي الأحكام التي يبلغونها، وفي الكلام العادى، ودليل صدقهم قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

وقوله في الحديث القدسي: «صدق عبدي في كل ما يبلغ عني».

أما الأمانة: فهي حفظ ما أودعهم الله من الأحكام حتى يبلغوها كاملة غير منقوصة ولا مبدلة: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [يونس: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤].

أما الفطانة: فهي الذكاء ورجاحة العقل، ويشهد لفطانة الرسل آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] ومنها قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ [هود: ٣٢] والجدال لا يكون إلا مع كمال العقل وقوة الحجة.

أما التبليغ: هو أداء ما حملوا من الشرائع والأحكام إلى الناس، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

ويستحيل على الرسل أضداد هذه الصفات وهي الكذب والخيانة

والكتمان والبلادة، ولنكمل الموضوع بما يجوز عليهم من الأعراض البشرية التي لا تؤدى إلى النقص.

منها الزواج، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

ومنها البيع والشراء والأكل والشرب، لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

ويجوز عليهم الخطأ فيما لم ينزل فيه الوحى لقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

ويجوز عليهم النسيان لقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

ويجوز عليهم تعلمهم علوم الدنيا قبل بعثتهم لما رواه السيوطى في الإتقان عن ابن فورك: «أنه نزلت التوراة جملة لأنها نزلت على نبى يكتب ويقرأ وهو موسى وأنزل القرآن مفروقًا لأنه أنزل غير مكتوب على نبى أمي».

ويجوز عليهم المرض الخفيف والموت لقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨].

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

سأل سائل عن الحكمة في إيراد قصة الأنبياء دون بعض في القرآن وأجيب على ذلك بأجوبة منها أن قصة الرسل الذين بعثوا إلى الناس جميعًا يصعب استيعابهم في معرض العبرة المقصودة من عرض القصة التي تذكر لضرب المثل وتذكير الناس بأيام الله وتسلية النبي فيما يقاسي من أعباء الرسالة.

ومنها أن يرتد قوم ذلك الرسول حتى لا يبقى فيهم أثر الرسالة أو أن يتخذوا أنبياءهم أربابًا يعبدونهم من دون الله فلا فائدة في ذكر قصتهم قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ [النحل: ٦٣].

أو أن يكون أولئك الأمم مجهولين عند العرب ولا داعي للاستشهاد بالمجهول.

وبما جاء في ذلك في تفسير المنار ما نصه[1]:

«ورسلا لم نقصصهم عليك كالمرسلين إلى الأمم المجهول علمها وتاريخها عند قومك وعند أهل الكتاب المجاورين لبلادك كأمم الشرق «الصين واليابان والهند»، وأمم بلاد الشمال «أوربا» وأمم القسم الآخر من الأرض «أمريكا»،

(١) تفسير المنار، ٦/ ٧٠.

ولم يقصص الله تعالى عليه خبر الرسل الذين أرسلهم إلى أولئك الأقوام لأن حكمة ذكر الرسل وفوائد بيان قصصهم لا تتحقق بقصص أولئك المجهول حالهم وحال أممهم عند قومه وجيران بلاده من أهل الكتاب.

● **نبوة النساء:**

روى عن أبى الحسن الأشعري أن الجمهور من علماء الكلام والتوحيد وعلماء السنة والجماعة ذهبوا إلى نفي النبوة عن النساء مستندين إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٣].

وعليه صاحب بدء الأمالى:

وما كانت نبيا قط أنثى ولا عبدًا وشخصًا ذا فعال[1]

أما ابن حزم الأندلسى فقد رد على هذا القول بأدلة لغوية علمية وقال:

«إن الآية وردت في نفي الرسالة عن النساء لا في نفي النبوة، وأوضح أن لفظة النبوة في اللغة العربية التي أنزل الله بها القرآن مأخوذة من الأنباء وهو الإعلام، فمن علمه الله بما يكون بوحي أو بملك فهو نبى بلا شك وليس هذا من باب الإلهام الطبيعي كوحي الله إلى النحل ولا من باب الظن والتخمين كوحي الشياطين إلى الناس بل الوحى الذي قصد الله به إعلام من يوحى إليه بما يعلمه ليعمل به، وقد جاء في القرآن أن الله أرسل ملائكة إلى عدد من النساء فأخبرتهن بوحي من الله على مثل ما يوحي الله إلى سائر

(١) قال على القارى فى شرحه على هذا البيت: وقد وقع الاختلاف فى وقوع نبوة أربع نسوة: مريم وآسية وسارة وهاجر، وزاد ابن الملقن فى شرحه لعمدة الأحكام: حواء وأم موسى.

الأنبياء والمرسلين من الرجال، وذكر ابن حزم سارة أم إسحاق وأم موسى ومريم أم عيسى كأمثلة لذلك».

وزاد بعض العلماء حواء وهاجر وآسية وجمع ذلك في أبيات نظما وقال:

قيل تنبأت من النساء ... ست فهاكها على الولاء

حوا وسارة يوخانذ كذا ... هاجر آسية مريم خذا

دليل ذا من الكتاب وقعا ... لأم موسى ولمريم معا

ومن يقل بعكس ذا قد استدل ... لنفيه بقوله عز وجل

إن الذى أرسل قبل أحمدا ... رجال أوحى إليهم الهدى

وإن وحيهن إلهام وقع ... من ربنا كما إلى النحل صنع

ورد ذا القول بقول المدعي ... نبوة فهى هنا ما امتنعا

أما دليل نبوة حواء فلأن الله كلمها مع زوجها في قوله تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

ثم في قوله تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢، ٢٣].

فإذا كان آدم نبيّاً لأن الله كلمه كما في الحديث فإن حواء نبية لأن الله كلمها مع زوجها كما دل عليه نص الآية.

أما دليل نبوة سارة أم إسحاق ففي قوله تعالى: ﴿ امْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧١-٧٣].

أما دليل نبوة يوخانذ أم موسى ففي قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]. فتحقق كل ذلك الوحي الذي جاءها مثل الوحي الذي جاء إبراهيم في ذبح إسماعيل.

قال الشوكاني: وقد أجمع العلماء على أنها لم تكن نبية وإنما كان إرسال الملك إليها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى كما في الصحيحين، وأن عمران بن الحصين تسلم عليه الملائكة.

فيرد ذلك بأن حديث الثلاثة من أحاديث بني إسرائيل الجائز نقلها على سبيل الحكايات والأمثال لا على سبيل العقيدة والتشريع، حتى ولو كان واقعياً فلا يمكن أن ينهض مساويًا لما أخبر الله به تعالى في كتابه العزيز أنه أوحى إلى بشر أو أرسل إليه ملكًا وأنبأه بما سيحدث فكان حقاً، ولا يخفي أن هناك فرقًا بين مجرد رؤية الملك وسماع كلامه، وبين رؤية الملك يأتي بوحي من الله، وقد

رأى الصحابة جبريل حيث أتاهم يعلمهم دينهم ولم يأتهم بوحي، وإلى هذا النوع يكون رؤية الملائكة من الأقرع والأعمى والأبرص. وقد قيد القرآن ذلك بقوله ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

أما دليل نبوة مريم أم عيسى ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وجاء اصطفاء الله مريم كاصطفاء الله الرجال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

ثم إن الله تعالى ذكرها في جملة الأنبياء في سورتهم بقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

ثم إن الله خصص لها سورة كما خصص سورة لنوح وإبراهيم ويوسف وهود ولقمان ويونس ومحمد وقال تعالى في سورة مريم:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ

﴿بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ١٦-٢١].

قال ابن حزم: أما قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥] فلا يمنع ذلك من نبوتها وقد وصف الله كثيراً من الأنبياء بأنهم صديقون.

أما دليل نبوة آسية امرأة فرعون فلم أجد في القرآن أكثر من أن الله ذكرها مقرونة مع مريم في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**».

وإذا كان الكمال للرجال لا يكون لغير الأنبياء والمرسلين، فالكمال في النساء لا يكون كذلك إلا للنبيات وذلك فيما قبل ختم النبوة، أما بعد ختم النبوة فالكمال يكون في الدرجة الصديقية.

أما دليل نبوة هاجر فلم أجد شيئًا في القرآن يؤيدها غير ما ورد في قصتها مع ابنها إسماعيل في واد غير ذى زرع حيث فقدت الماء وعطش ولدها وجعلت تسعى بين الصفا والمروة، تصعد على الصفا تارة وعلى المروة

أخرى، فشرع الله علينا أن نستن بسنتها في هذا السعي إلى الأبد، وتلك فضيلة أعظم من أن يتفضل الله بها على امرأة غير فاضلة.

هذا ولقد وصفت التوراة عدداً من النساء بوصف النبوة منهن من ذكرنا، كما ذكر الإنجيل عدداً من النبيات.

●●●

● هل يوجد نبي مسلوب؟:

في القرآن آيات عديدة تحذر النبي محمد ﷺ والأنبياء قبله من الانحراف عما جاءهم من العلم وتوعدهم أنهم إن فعلوا صاروا من الخاسرين.

فقد قال تعالى بعد سرد أسماء الأنبياء إثر آية ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا﴾ [الأنعام: ٨٣]، ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٧، ٨٨].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقال أيضاً: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

وقد أنكر العلماء سلب نبى من الأنبياء، وقالوا إن ذلك ينافي قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] لأن السلب يوجب البداء على الله وهو محال.

وأنا أقول: إن الآية التي احتجوا بها نصت على الرسالة ولم تنص على غيرها وإلا فكيف يفسرون قوله تعالى: ﴿ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٥]. أليست النبوة من الآيات؟

وفي «البداية والنهاية» ما رواه مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس: أن عزيراً كان يذكر مع الأنبياء حتى محى الله اسمه من ذلك حين سأل ربه عن القدر، ثم قال الحافظ ابن كثير: وهذا ضعيف ومنقطع ومنكر.

وجاء في البداية والنهاية -برواية أخرى عن عبد الرزاق وقتيبة ابن سعيد -: «أن عزيرا قال فيما يناجى ربه: يارب تخلق خلقًا فتضل من تشاء وتهدى من تشاء» فقيل له: أعرض عن هذا. فعاد، فقيل له: لتعرضن عن هذا أو لأمحون اسمك من الأنبياء.. إنى لا أسئل عما أفعل وهم يسئلون».

قال ابن كثير: وهذا لا يقتضى وقوع ما توعد عليه لو عاد فما محى اسمه.

●●●

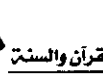

● هل بلعام بن باعوراء نبى مسلوب.. أو عالم ملعون؟:

ذهب أهل التفسير المأثور إلى البحث عمن نزلت فيه هذه الآيات ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

وأفضلهم عندي من قال إنها نزلت في أمية بن أبى الصلت الثقفي الذي قيل إنه كان شاعرًا حنفيًا قبل الإسلام ثم خرج إلى البحرين وتنبأ رسول الله أثناء ذلك، ثم قدم فلقي رسول الله ﷺ في جماعة من أصحابه فدعاه النبى إلى الإسلام وقرأ عليه سورة «يس» حتى فرغ منها ووثب أمية يجر رجليه فتبعته قريش تسأله: ما تقول يا أمية؟ قال: أشهد أنه على الحق، قالوا: فهل نتبعه؟ قال: حتى أنظر في أمره، ثم خرج إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم فلما أخبر بقتلى بدر ترك الإسلام ورجع إلى الطائف فمات بها.

(قلت): هذه واقعة وقعت بين يدى الصحابة والقرآن ينزل فلا يحتاجون فيها إلى مصدر أو مرجع غير ما شاهدوا، ثم صارت الآية محمولة على كل من أعطاه الله من آياته وكتابه فانسلخ منها فجعله مثل الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له حيث إنه ترك الهدى وصار ضالاً.

وذهب أهل الإسرائيليات وهم علماء اليهود والنصارى الذين أسلموا

وصاروا يحاولون تطبيق آيات القرآن على ما عندهم حذو النعل بالنعل، ذهبوا إلى أن هذه الآيات نزلت في رجل كان اسمه بلعام وكان يحسن اسمًا من أسماء الله فغزاهم موسى في سبعين ألفًا، فجاءه قومه فقالوا: ادع الله عليهم، وكانوا إذا غزاهم أحد أتوه فدعا عليهم فهلكوا، وكان لا يدعو حتى ينام فينظر ما يؤمر به في منامه فنام فقيل له: ادع الله لهم ولا تدع عليهم فاستيقظ فأبى أن يدعو عليهم فقال لهم: زينوا لهم النساء فإنهم إذا رأوهن لم يصبروا حتى يصيبوا من الذنوب فتدالوا عليهم» اهـ.

(قلت): هذه أوجز وأحسن رواية، وهناك روايات أطول وأسوأ.

قال صاحب المنار بعد إيراد هذه القصة:

ذلك ما لخصه السيوطي عن رواة التفسير المأثور وكله مما انخدع به بعض الصحابة والتابعين من الإسرائيليات إن صحت الروايات عنهم.

(قلت): يوجد أربع مخالفات بين ما ينقل مباشرة من التوراة حتى المحرفة الموجودة الآن وبين ما يروى عن علماء بنى إسرائيل مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه.

وذلك لأن في التوراة التي بأيدينا اليوم في سفر العدد (الإصحاح ٢٢-٢٤): أن بلعام نبى كان يتلقى الوحي من الله حيث قال: «وحى بلعام بن بعور وحي الرجل المفتوح العينين وحي الذي يسمع أقوال الله ويعرف معرفة العلي الذي يرى رؤيا القدير ساقطًا وهو مكشوف العينين».

(قلت): ولا ندري من أين أدرك رواة القصة أنه ليس نبيّاً بل هو عالم يحسن الاسم الأعظم.

ثانيًا: أن رواة القصة قالوا إن بلعام من علماء بني إسرائيل. وفي التوراة أن القصة وقعت في عربات معراب وأن بالاق ملك المعرابين هو الذي طلب من بلعام أن يلعن بني إسرائيل لينتصر عليهم.

ثالثًا: إن رواة القصة قالوا إن بلعام أمر قومه أن يغزوا بنى إسرائيل بالزنا ويعرضوا نساءهم عليهم، وليس في التوراة سند لذلك وإن جاء فيها أن بني إسرائيل وقعوا في الزنا بأنفسهم كعادتهم في الوقوع في المآثم.

رابعًا: في التوراة أن بلعام كان يدعو لبني إسرائيل ولم يدع عليهم حتى غضب عليه بالاق فرد عليه بلعام أنه إنما يجري على لسانه ما أراد الله أن يفعل.

خامسًا: إن رواة القصة قالوا: اندلع لسان بلعام أو صار كلبًا يلهث، وفي التوراة أنه رجع إلى مكانه سالمًا ولم يصبه شيء.

قال صاحب المنار بعد عرض هذه الإسرائيليات عن ابن عساكر:

أقول: إن هذا الحافظ -ابن عساكر- كان مطلعًا على التوراة التي في أيدي أهل الكتاب وهي عين التي بين أيدينا إلا ما في اختلاف الترجمات القديمة والحديثة من الفروق وهي وإن كان فيها اختلاف في المعانى فلن يصل إلى الحد الذي في روايات وهب وكعب وغيرهما من رواة الإسرائيليات الكاذبة.

ثم قال صاحب المنار:

ولو ذكر القرآن أن الرجل الذي آتاه الله آياته هو بلعام هذا، أو صح هذا في خبر مسند متصل عن النبي لكان صحيحًا.

ولكن يجب أن نعلم من أين جاء وهب بهذه القصة وهو لم يكن إلا راويًا لما عند أهل الكتاب، وما قاله مخالف لما عندهم»[1].

(قلت): إن صح ما نسب إلى وهب وكعب من قصة بلعام أنه نبى مسلوب أو عالم مسلوب إنما يكون ذلك من عقابيل عصبية اليهود الذين ينكرون أن يؤتي الله نبوة أو حكمة أو علمًا لغير بنى إسرائيل ولا يرتاحون حتى يروه مسلوبًا.

ونحن إزاء هذه القصة بين ثلاثة أمور:

الأول: إما أن نقبل قصة بلعام كما هي في التوراة التي بين أيدينا: أن بلعام نبي طلب منه قومه أن يدعو على بني إسرائيل ونهاه الله أن يفعل فلم يفعل ولم يسلب.

الثاني: وإما أن نقبل أنه كان نبيآ من غير بني إسرائيل دعا على موسى فاندلع لسانه وصار كالكلب يلهث حسبما في الإسرائيليات فهو بذلك نبي مسلوب.

أما أنه ليس بنبي بل هو عالم، فليس له أصل في القرآن والحديث والتوراة.

●●●

(١) الجزء التاسع ص٤١٤ وما بعدها.

● **نبوة الجن:**

الجن نوع من خلق الله مخلوقون من نار لهم حركات أثيرية سريعة خاطفة يستترون عن أعين الناس ويتشكلون بأشكال رهيبة يسكنون أعالي الجبال والأشجار والصحارى والبيوت الخربة.

وقد قال القرآن حاكيًا عنهم بقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا**﴾ [الجن: ١١] منهم العفاريت والشياطين والتوابع والقرناء ورئيسهم إبليس وله ذرية وأتباع ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ**﴾ [الأعراف: ٢٧].

أحدث بعض القصاصين والمفسرين القول بنبوة الجن متعلقين بظاهر قوله تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا**﴾ [الأنعام: ١٣٠]. وبناء على هذا زعموا أن للجن أنبياء كما كانوا للإنس وأن أول نبي أرسله الله إلى الجن اسمه عامر ابن عمير بن الجان فقتلوه ثم أرسل إليهم غيره فقتلوه ولم يزل يرسل إليهم الرسل ولم يزالوا يقتلونهم حتى بلغوا ثمانمائة.

لم يرد في القرآن والحديث نص يستند إليه هذا القول وكل ما قال عنهم القرآن أنهم مخلوقون لعبادة الله كالإنس، لقوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦] وأنهم مخاطبون بما يخاطب به

الإنس لقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقد ذكر القرآن أنهم مسخرون للنبي سليمان بن داود عليهما السلام ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٢، ١٣].

وذكر القرآن أن طائفة منهم سمعوا القرآن من النبي ﷺ فآمنوا ثم ولوا إلى قومهم منذرين: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩، ٣٠].

وروى مسلم وأحمد والترمذي: «أن طائفة منهم سألوا النبي الزاد فدعا الله لهم أن لا يمروا بعظم ولا روثة إلا وجدوا عليها طعامًا لأنفسهم وعلفًا لدوابهم».

كل ذلك دليل على أنهم تابعون للإنس ومطالبون بما يناسبهم من شريعة الإنس كما كانت للنساء شرائع فيما يخصهن من الحيض والنفاس وغير ذلك.

وينكر الماديون وجود الجن ويلجأون إلى تأويل النصوص الواردة فيهم تأويلاً بعيداً عن معنى اللفظ ويبطلون بذلك ركنًا كبيرًا من الغيبيات.

على أن الإيمان بوجود الجن كالإيمان بوجود الملائكة فإنهما ثابتان بالنصوص القطعية من القرآن والحديث فلا سبيل لأحد إلى إنكارهما.

وقد أخبر النبي ﷺ أنهم يتشكلون بأشكال الحيات لهذا نهى النبى ﷺ عن قتل الحيات التي في بيوت المدينة حتى تستأذن ثلاثًا إلا ذا الطفيتين والأبتر فإنهما يخطفان البصر ويطرحان ما في بطون النساء.

وفي الموطأ عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: إنه كان في بيت قريب منه فتى قريب عهد بعرس فخرج مع رسول الله ﷺ إلى الخندق فبينما هو به إذ أتاه الفتى يستأذنه فقال: يا رسول الله.. إيذن لي أحدث بأهلي عهدًا، فأذن له رسول الله ﷺ وقال: «خذ عليك سلاحك فإني أخشى عليك بني قريظة»، فانطلق الفتى إلى أهله فوجد امرأته قائمة بين البابين فأدركته الغيرة فأهوى إليها بالرمح ليطعنها فقالت: لا تعجل حتى تدخل وتنظر ما في بيتك. فدخل فإذا هو بحية منطوية على فراشه فوكز فيها رمحه ثم خرج بها فنصبه في الدار فاضطربت الحية في رأس الرمح فخر الفتى ميتًا فما يدرى أيهما كان أسرع موتًا: الفتى أم الحية» فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**إن بالمدينة جنا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئًا فأذنوه ثلاثًا فإن بدا بعد ذلك فاقتلوه فإنه شيطان**».

أقول: لقد شاهدنا كثيرًا من السفهاء الذين قتلوا حيات مدنهم في بلادنا هذه فماتوا لساعتهم ولقد وقع ذلك مرارًا وتكرارًا حتى لم يبق فيه شك عندنا وذلك مصداق لقول النبي ﷺ ودليل قاطع على وجود الجن[1].

●●●

● نبوة الملائكة:

الملائكة أو الملأ الأعلى: جواهر نورانية لطيفة منزهة عن الشهوات الحيوانية لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

والملائكة طبقات كالبشر منهم رسل الله وفيهم جنوده ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

ولما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال أيضًا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً

(١) ذهب أحمد بن حابط من تلاميذ النظام إلى أن الله بعث في الحيوان لقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].
فيرد عليه بأن الوحي إلى البشر هو النبوة أما الوحي إلى غير البشر فهو إلهام طبيعي، والرسالة لا تكون إلا إلى الناس لقوله تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] انظر الفصل لابن حزم.

﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

فبما أن الرسالة لا تكون إلا بالوحي ثبت يقينًا أن رسل الملائكة كانوا أنبياء قبل أن يكونوا رسلاً، وكانوا يتلقون الوحي من الله على ما يناسبهم لقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [الأنفال: ١٢].

وروى البخارى أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كأنه صلصلة على صفوان فإذا ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾** [سبأ: ٢٣].

وفي رواية علي: يأتيهم جبريل فإذا جاءهم ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾.

وقد مر تفاصيل ذلك في كيفية نزول الوحي على الملائكة.

●●●

● في كل أمة نبى أو رسول:

تكاد التوراة تحصر النبوة في ثلاث أمم:

الأمة العبرانية التي منها إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

والأمة العربية التي منها ملكي صادق الذي استقبل إبراهيم راجعًا من

حروبه وأعطاه عشراً من غنائمه وبارك إبراهيم[1] والتي منها يثرون «شعيب أو الخضر» وأيوب وبلعام.

والأمة الإسرائيلية التي منها موسى وهارون وداود وسليمان.

أما القرآن فقد ذكر أن الله تعالى بعث في كل أمة نبياً ورسولاً وذكر هوداً وصالحًا وغيرهما من الذين لم يرد ذكرهم في التوراة والإنجيل قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال أيضًا: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦].

وقال أيضًا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [إبراهيم: ٩].

كل هذه الآيات تقرر أن النبوة والرسالة قد ظهرت في كل أمة راقية من الأمم القديمة مثل اليونان والفرس والهند ومصر والصين والسودان، وربما كانت الديانات الكبرى المشهورة اليوم في تلك البلاد من بقايا الديانات السماوية كانت صحيحة ثم تلوثت بالوثنية بعد مرور الزمن كالبوذية في الهند والمانوية والزرادشتية في فارس، وكان الفقهاء والمحدثون يرجحون كون المجوس من أهل الكتاب لأن النبي أخذ منهم الجزية، ولا يبيح النبي ﷺ أخذ الجزية إلا من أهل الكتاب فلا سبيل إلى نزول الكتاب من الله بغير نبي مرسل.

(١) سفر التكوين -الإصحاح الرابع عشر، ورسالة بولس إلى العبرانيين الإصحاح السابع.

ويرجح مفتى طرابلس أن كثيراً من فلسفة الأقدمين في مصر والصين والهند هى بقايا نبوات نسيها التاريخ فحشر أصحابها في عداد الفلاسفة ولعلهم من الرسل أو أتباع الرسل[1].

وما يرجح ذلك أنه كانوا يسمون الأنبياء بأسماء متنوعة في بلاد مختلفة قبل اتصالهم بالعرب، وكان العبرانيون يستعملون كلمة الناظر أو الرائى أو رجل الله أو الكاهن لقاء كلمة النبى عند العرب كما في الإصحاح التاسع في سفر صمويل الثانى، إنما أخذوا كلمة النبى بعد موسى وصاروا يطلقونها كالعرب، وكان أكثر أنبياء بنى إسرائيل يعرفون في التوراة بالحكماء أو الملوك، ويوسف وسليمان عند اليهود ملوك وكانوا يصفون أنبياءهم بصفة الحكمة أكثر من صفة النبوة.

●●●

● اختصاص النبوة لمنطقة معينة:

كتب الكاتب العملاق الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه «أبى الأنبياء» تحت عنوان «مدن القوافل» مقالاً ضافيا يرد فيه على منكرى وجود إبراهيم مطلقًا أو ذهابه إلى مكة، كما يرد فيه على المتسائلين عن سبب اختصاص الرسالة النبوية، ولِم لم تظهر هذه الرسالات في الهند أو في الصين أو في القارة الأوربية؟

أجاب عليها بإجابات الباحث القدير المحيط بأصول الفلسفة والتاريخ.

(١) قصة الإيمان ص٢٧.

غير أنه تأثر كثيراً بمقارنة الأديان على مذهب التطور الذي لم يسلم من التشكيك في رسالات الأنبياء ووحى السماء.

وهو حين يرد على الملحدين المنكرين لوجود إبراهيم أو على الذين ينكرون ذهاب إبراهيم إلى مكة لبناء البيت فتح باباً آخر جديداً للذين ينكرون أن النبوة والأنبياء فضل مشاع للعالم أجمع، وقد قرر القرآن أن النبوة لا تختص بأمة دون أخرى.

قال العقاد: «فلم تتهيأ النفوس للرسالة النبوية في حالة قط كما تهيأت لها وهى قائمة بين البداوة والحضارة، ولم يعرف التاريخ رسالة نبوية في الحضارة دون غيرها -أى البداوة- أو في الصحراء المنعزلة دون غيرها- أى الحضارة- وإنما عرفت هذه الرسالات على الدوام في مدينة حولها صحراء أو في صحراء على مقربة من مدينة لهذا كانت مدن القوافل وما في حكمها أحق الأماكن بالدراسة من جانبها هذا الذي يرشحها لقيام الدعوات الدينية.

ثم قال: إن القطر الذي تتصل فيه الحضارة وتتلاحق فيه مظاهر العمران يعطينا المتشرعين والكهان ولا يعطينا الأنبياء المرسلين أو الرسل.

ففي هذا القطر يسرى العرف وترتقى العادات الاجتماعية ويستقر نظام القانون والمعاملة، وقد يتقدم أهله إلى إدراك العقائد الدينية من طريق تقدم المجتمع وتقدم الثقافة ومعاهد التعليم.

إلى أن قال: فليست دعوة النبوة بالدعوة التي تشيع وتجتذب إليها الأسماع في مواطن الحضارة القديمة بعد استقرار العمران.

وإذا شاع الفساد في مواطن الحضارة فالمسألة في هذه الحالة مسألة تشريع وقانون ومسألة تنظيم وتدبير».

قلت: في هذا الكلام إشارة من طرف خفي إلى أن الحضارة يمكن أن تستغنى عن النبوة والديانة على نحو ما يزعم المتطورون والملحدون.

ثم قال: لحكمة بالغة قال النبى ﷺ: «**ما من نبى إلا وقد رعى الغنم**» ولحكمة بالغة قامت مدينة القوافل بدورها في تاريخ بنى الإنسان فنشأ الحكماء والنساك في الصين والهند ولم ينشأ فيهم الأنبياء والمرسلون والرسل المجاهدون.

وأنا أقول: لا نسلم لهذا الرأى لأنه غير صحيح للبراهين الآتية:

الأول: لقد قرر القرآن أن الله تعالى بعث في كل أمة رسولاً وقال ﴿**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ [فاطر: ٢٤]. فلهذا لا تكون النبوة مختصة لمنطقة أو لمرحلة بين الحضارة والبداوة.

الثانى: لقد بعث الله إدريس ويوسف وموسى أنبياء على مصر يوم كانت في أوج الحضارة.

الثالث: أن ظهور الحكماء والنساك في الصين والهند واليونان لا ينافي ظهور الأنبياء فيها، وربما كان أولئك الحكماء والنساك أنبياء أو ورثة الأنبياء نسيهم التاريخ وحشرهم الناس في زمرة الحكماء كما قرره الشيخ نديم الجسر في كتابه «قصة الإيمان».

وقرر الشهرستاني: أن فلسفة طاليس الملطي وغيره من فلاسفة اليونان كانت من مشكاة النبوة.

●●●

● بين النبوة.. والعلم.. والحكمة:

ينكر العلمانيون الملاحدة فضل النبوة على الإنسانية ويعترفون بفضل العلم والحكمة، والحقيقة أن النبوة أصل والعلم والحكمة فرعان من النبوة.

فالنبوة هبة من الله مختصة بمن شاء من عباده الصالحين وهي لا تورث.

أما العلم والحكمة فثمرتان من ثمرات النبوة يرثهما العلماء والحكماء ليرشدوا بهما الناس أيام الفترة وعند ختم النبوة إذ ما من نبي إلا وقد وصفه الله بالعلم والحكمة.

قال في يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال في سيدنا موسى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

وقال في سيدنا داود ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ثم قال فيه وفي ابنه سليمان: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال في سيدنا عيسى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

وقال في سيدنا لقمان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢].

وقال في الجملة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها**».

وقال في الصحيحين: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة وهو يقضى بها ويعلمها**».

أما في التوراة فكانت الحكمة تسير جنبًا إلى جنب في ركاب واحد مع النبوة، فلقد نصت التوراة على ذلك في كثير من أسفارها.

ولقد جاء في الإصحاح الحادى والأربعين من «سفر التكوين» في قصة يوسف حين كان يعبر الرؤيا للملك قال بتصرف: «فالآن لينظر فرعون رجلاً بصيراً وحكيماً ويجعله على أرض مصر فقال فرعون لعبيده هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله؟ ثم قال ليوسف: بعد ما أعلمك الله كل هذا ليس بصير وحكيم مثلك».

وفي سفر الخروج الباب الثامن والعشرون قال: «قال الرب لموسى وتكلم جميع حكماء القلوب الذين ملأتهم روح حكمة أن يصنعوا ثياب هارون لتقديسه ليكهن لى».

وفي الحادى والثلاثين منه أيضًا: «وكلم الرب موسى قائلاً فدعوت بصلئيل وملأته من روح الله بالحكمة والفهم وكل صنعة لاختراع مخترعات».

وفي التثنية في الإصحاح الرابع والثلاثين: «ويوشع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة إذ وضع عليه موسى يده».

وفي سفر الملوك الأول الإصحاح الثالث عقيب حكم النبى سليمان: «ولما سمع جميع إسرائيل بالحكم الذي حكم به الملك خافوا لأنهم رأوا حكمة الله فيه لإجراء الحكم».

وفي الإصحاح الخامس من السفر المذكور: «وأعطى الله سليمان حكمة وفهما كثيراً جداً وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بنى المشرق وكل حكمة مصر وكان أحكم من جميع الناس».

وسفر الأمثال وسفر الجامعة مليئة بالحكم ومدح الحكمة، وفي سفر أيوب الإصحاح الثانى ينسب الحكمة إلى الله ويقول: «وعنده الحكمة والقدرة له المشورة والفطنة».

وفي الإصحاح الثامن والعشرين منه: «أما الحكمة فمن أين توجد وأين هو مكان الفهم لا يعرف الإنسان قيمتها ولا توجد في أرض الأحياء، الله يفهم طريقها وهو عالم بمكانها ومخافة الله هى الحكمة والحيدان عن الشر هو الفهم».

وفي سفر دانيال الإصحاح الأول: «أما هؤلاء الفتيان الأربعة دانيال وحننيا وميشائل وعزريا فأعطاهم الله معرفة وعقلاً في كل كتابة وحكمة وكان دانيال فهيمًا بكل الرؤى والأحلام».

وفي الإصحاح الثانى منه قال: «ليكن اسم الله مباركًا من الأزل إلى الأبد لأن الحكمة والجبروت وهو بغير الأوقات والأزمنة يعزل ملوكًا ويعطى الحكماء حكمة ويعلم العرافين فهمًا».

وفي إنجيل لوقا في وصف عيسى في الإصحاح الثانى: «وكان الصبى ينمو ويتقوى بالروح ممتلئًا حكمة وكانت نعمة عليه» إلى أن قال «أما يسوع فكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس».

وفي سفر أعمال الرسل الإصحاح السادس: «فانتخبوا أيها الأخوة سبعة رجال منكم مشهوداً لهم ومملوءين من الروح القدس وحكمة فنقيمهم على هذه الحاجة» إلى أن قال «ولم يقدروا أن يقاوموا الحكمة والروح الذي كان يتكلم به استفانوس».

هذا قليل من كثير مما ورد في التوراة والإنجيل والقرآن من ذكر الحكمة مقرونة مع النبوة كل ذلك دليل ثابت على وجود الصلة بين النبوة والحكمة وأنهما من الله تعالى. يقول الراغب الأصفهانى في كتابه «الذريعة في أحكام الشريعة» الباب السادس والسابع: «لقد قرن القرآن بين الكتاب والحكمة في كثير من الآيات وجعل الكتاب لما يدرك من جهة النبوات وجعل الحكمة لما يدرك من جهة العقليات وجعل الاثنين وحيا من الله وكل

واحد منهما يحتاج إلى الآخر ولهذا يقول: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقال الشهرستاني في «الملل والنحل»: «إن الحكمة تنقسم إلى قسمين: القسم العملي والقسم العلمي، وأن الأنبياء أيدوا بإمدادات روحانية لتقرير القسم العملي وبطرف ما من القسم العلمي، وأن الحكماء تعرضوا لإمدادات عقلية تقريراً للقسم العلمي وبطرف ما من القسم العملي».

●●●

● **معنى الحكمة عند العلماء:**

قال الراغب: الحكمة في تعارف الشرع اسم للعلوم العقلية.

وقال أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي في «العواصم والقواصم»: «ليس للحكمة معنى إلا العلم ولا للعلم معنى إلا العقل إلا أن في الحكمة إشارة إلى ثمرة العلم وفائدته».

وقال الشيخ مصطفى عبد الرازق: في كتابه «تمهيد للفلسفة»: «إن القرآن قد ذكر الحكمة التي كانت معروفة عند العرب وكانت شرفًا لأهلها وجاها وأثنى عليها وشجع على إحياءها ونموها.

والقرآن إنما استعمل الحكمة والحكم وما إليهما في معانيها اللغوية، وذكر أن الحكمة معناها اللغوى هى العلم النافع والفقه في شئون الحياة بتعرف الحق فيها وإمضائه»[1].

(١) تمهيد للفلسفة: للشيخ مصطفى عبد الرازق، ص١١٧.

ومهما يكن الفرق بين الحكمة القرآنية والحكمة اليونانية فلا خلاف عند الحكمتين في أن الحكمة معرفة الموجودات بحقائقها وكلياتها مع فوائدها.

وقيل هى الاقتداء بالخالق في سياسة الأمور بقدر الطاقة البشرية.

وقيل إنها اسم لكل علم حسن وعمل صالح وإصابة الحق بالعقل.

والحكمة أخص من الحكم فكل حكمة حكم وليس كل حكم حكمة.

ونسبة العلوم إلى الحكمة كنسبة الأعضاء إلى البدن ونسبة الرئيس إلى المرؤوسين.

وللأئمة الأربعة تفسيرات مختلفة للحكمة كل حسب رأيه على أنها لا تعدو أن المراد بها العلم الذي يتصل بالعمل.

●●●

● العلاقة بين النبوة.. والعلم:

أما العلم الصحيح فهو أيضًا ثمرة من ثمرات النبوة لذلك يصف القرآن كل نبى بصفة العلم قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وقال في داود ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وقرر أن العلم من معطيات الله بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥] ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

قرر الإسلام أن العلم الصحيح أيّاً كان نوعه نصير لدعوة الأنبياء وعمدة لرسالة المرسلين لهذا ربط القرآن بين العلم وخشية الله في قوله تعالى بعد سياق آيات في علوم الكون والفلك والطبيعة في سورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ﴾ [فاطر: ٢٧]- إلى قوله- ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقرر القرآن أن العلم تركة الأنبياء بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

وجاءت الأحاديث لتفسير تلك الآيات منها: «العلماء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم» إلى غير ذلك مما يحقق الصلة ووحدة المصدر بين النبوة والعلم والحكمة.

●●●

● وظائف الأنبياء:

إن جميع الآيات القرآنية التي وردت مرادفة مع ذكر كل رسول تقرر أن أهم ما بعث الله به الرسل هو الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وإرشاد الناس إلى النظم والشرائع في العادات والمعاملات والمثل العالية والقيم الروحية ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ثم البشارة والنذارة لقوله تعالى: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥] لم تكن وظائف الرسل والأنبياء قائمة على تعليم الناس العلوم الكونية والصناعات الإنسانية فللناس في تجاربهم ما يغنيهم عن هداية الرسل.

ولكن أبا محمد بن حزم الأندلسي يرى أن الأنبياء والمرسلين قد اشتركوا في تعليم الصناعات والعلوم إلى حد كبير مضافًا إلى وظيفتهم الدينية، وقال ما نصه: «صح أن الله تعالى ابتدأ العالم ولم يكن موجودًا حتى خلقه الله فبيقين أن العلوم والصناعات لا يمكن ألبتة أن يهتدى إليها أحد بطبعه دون تعلم كالطب للأمراض والعلاج بالعقاقير التي لا سبيل إلى تجريبها كلها إلا في عشرات آلاف من السنين، وكعلم النجوم ومعرفة دورانها في أفلاكها مما لا يتم إلا في عشرات آلاف من السنين، وكالحرث والحصاد والطحن والعجن والطبخ وتربية المواشي واستخراج المعادن وعمل الأبنية وكل هذا لا سبيل إلى الاهتداء إليه دون تعليم، فوجب بالضرورة أنه لابد من إنسان واحد فأكثر علمهم الله تعالى ابتداء كل هذا دون معلم لكن بوحي حققه عنده وهذه صفة النبوة».

ومعنى ذلك أن الأنبياء هم الذين ابتدأوا معرفة هذه الأشياء قبل أن تعم، على أن في قصص كثير من الأنبياء والمرسلين ما يدل على اشتراكهم في وضع قواعد العلوم والمعارف والصنائع إلى جانب وظائفهم الروحية التي هي الأصل في إرسالهم، هذا وأن الاعتراف بأن الأنبياء اشتركوا في

وضع قواعد المعارف والصناعات ليس من أوصاف النقص بل من أوصاف الكمال.

فأبونا آدم أول من علمه الله علم الطبيعة والحياة وخاصيات النباتات وكل ما يدخل تحت معنى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

وسيدنا نوح أول من علمه الله صنعة الفلك البحرى فصنعه بعين الله ووحيه كما قال تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧].

وسيدنا إدريس أول من خاط الثياب ووضع قواعد علم النجوم الفلكى كما هو مشهور في كتب التاريخ.

وسيدنا يوسف أول من أفاد العالم بالاقتصاد الزراعى كما في سورته.

وسيدنا موسى أول من وضع قواعد السياسة والحكومة وقواعد الحرب والسلم بما أوضح الله كل ذلك في التوراة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقرر القرآن أن الله تعالى علم سيدنا داود صنعة الدروع والأسلحة للتحصن والدفاع كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

فإن حشر ذى القرنين صانع السد ولقمان الحكيم والخضر العالم اللدنى في زمرة الأنبياء أكمل وأشرف لرسالات الأنبياء وأخلد لآثارهم الملموسة

في تاريخ المعارف والعلوم الإنسانية وأبلغ لإفحام الملحدين الذين يقللون من قيمة آثار النبوة والأنبياء ويضيقونها في الغيبيات والروحيات فقط.

وإذا أخرجنا لقمان من الأنبياء وحشرناه في الحكماء ترجحت الحكمة وارتفعت قيمة الحكماء لأن الله مدح واحداً منهم، وإذا حشرناه في زمرة الأنبياء ثقل ميزان النبوة.

فماذا علينا لو جمعنا بين الحكمة والنبوة في كفة واحدة ووضعنا كفة المعارف والعلوم الإنسانية في كفة أخرى لإعجاز المتبجحين بالحكمة، إن الحكمة الصحيحة من آثار النبوة إنما اقتبسها منهم غير الأنبياء وأن المعارف الإنسانية إنما وضع قواعدها الأنبياء الأولون.

●●●

● دليل ختم النبوة:

عقد الإمام محمد عبده في كتابه «رسالة التوحيد» مقالاً تحت عنوان «ترقي الأديان بترقي الإنسان» جاء فيه بتصرف: «جاءت الأديان والإنسان في طور الطفولة لم ينفث في روعه ما يعطفه على بنى جنسه، بل كان يحرص على ما يقيم بناء شخصه فلم يكن من حكمة الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف الوجدان بل كان من عظيم الرحمة أن يسير بهم في سذاجة السن، لا يأتيهم إلا من قبل ما يحسونه بسمعهم وبصرهم، وجاءت من الآيات ما تطرف له عيونهم وتنفعل به مشاعرهم وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه، ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها أقوام

وارتفعت فجاء دين يخاطب القلوب فشرع للناس من الشرائع ما يوجههم نحو الملكوت الأعلى، ولما كانت سن الاجتماع البشرى قد بلغت بالإنسان أشده وأعادته الحوادث إلى رشده جاء الإسلام يخاطب العقل».

فمثل سبق نبوة الأنبياء على نبوة سيدنا محمد ﷺ كمثل سبق ظهور النباتات والحيوانات على سطح الأرض تمهيداً وتوطئة لظهور الإنسان.

فالإنسان هو المقصود الحقيقى لعمارة الأرض فلا شيء أرقى منه يخلفه على وجه الأرض، والنبى محمد ﷺ هو المقصود الحقيقى للنبوة الإلهية والرسالة السماوية فلا نبى أرقى منه يخلفه على وجه الأرض إنما سبقت نبوة الأنبياء قبله تمهيداً لظهوره.

فإذا كان لا يخلف الإنسان خلق آخر على وجه الأرض فلا وجه لأن يخلف محمداً ﷺ رسول آخر، والمطلع على النبوات السابقة لا يتردد في التسليم بأن نبوة محمد ﷺ أرقى الجميع، والناظر في الرسالات الماضية لا يشك في أن رسالة محمد ﷺ أكمل جميع الرسالات، والقارئ للكتب السماوية السابقة لا ينكر أن القرآن أكمل ما يطلق عليه الوحى المنزل من الله على البشر.

وعليه يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: «والواقع أن النبوة الإسلامية جاءت مصححة متممة لكل ما تقدمها من فكرة عن النبوة كما كانت عقيدة الإسلام مصححة متممة لكل ما تقدمها من عقائد بنى الإنسان في الإله».

وعلى هذا الأسلوب وبهذا المعنى نستطيع أن نفهم معنى ختم النبوات بسيدنا محمد ﷺ.

●●●

● جواز الخطأ والنسيان على الأنبياء:

اتفق علماء الإسلام على أن الأنبياء المرسلين معصومون عن تعمد الكبائر بعد النبوة والرسالة، وجواز الخطأ والنسيان عليهم فيما دون الكبائر وفيما لم يوح إليهم، وهذا هو الراجح، فإنهم معصومون عن الخطأ في كل ما يتصل بالوحي من أمور الدين وليسوا بمعصومين عن الخطأ فيما لم ينزل فيه الوحي من أمور الدين والدنيا معًا، ولكن الله لا يقرهم على مثل هذا الخطأ بل ينبههم أو يعاتبهم عليه.

مثال ذلك ما وقع في أسرى بدر حيث أخذ المسلمون الفداء عن أسارى بدر فجاءت الآية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وكذلك نزلت في المخلفين بقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

ومن أمثلة أخطائهم في أمور الدنيا نزول النبي ﷺ بمنزله في بدر فرأى أحد الصحابة -الحباب بن المنذر- أن النزول في غيره أفضل فتحول النبي ﷺ إلى رأى الحباب.

وكذلك نهيه عن تلقيح النخل بقوله ﷺ: «**لو تركتموه لأثمر**». فتركوه ولم يثمر ولما أخبروه قال: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم فما حدثتكم عن الله فهو حق وما قلته من قبل نفسي فإنما أنا بشر أخطئ وأصيب**»(١).

ويجوز عليهم النسيان بعد التبليغ لقوله تعالى: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ**﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

وجاء في الحديث «**إني لا أنسى ولكن أنسى للتشريع**» كسلامه من ركعتين لحكمة بيان جبر الصلاة بالسجود.

ويجوز عليهم كل ما لا يؤدى إلى النقص من الأعراض البشرية كالأكل والشرب والنوم والزواج الحلال والمرض الخفيف.

● **جواز تعلم الأنبياء قبل مبعثهم:**

من الأنبياء من تولى الله تثقيفهم بنفسه ولكنهم قليلون منهم آدم الذي علمه الله الأسماء كلها، ويحيى الذي آتاه الله الحكم صبياً، وعيسى الذي تكلم في المهد.

ومنهم من وكل الله تثقيفهم إلى البيئة والظروف المحيطة بهم لذلك لم يكونوا يبعثون إلا على رأس الأربعين من العمر وذلك لكمال الرشد ورجاحة العقل ونضوج الثقافة.

وإذا كان من صفات الكمال للأنبياء الذكاء والفطانة فإن تثقيفهم بثقافة

(١) انظر الشفا: للقاضي عياض.

زمانهم التي تكمل بها فطانتهم وذكائهم قبل نزول الوحى عليهم مما يجوز عليهم شرعًا وعقلا، لأن الجهل بما يعلمه أهل زمانهم لا شك يقدح في شرفهم إلا ما كان على سبيل الإعجاز كإبقاء النبى محمد ﷺ على الأمية إثباتًا لمعجزة القرآن على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ومما يدل على تعلم الأنبياء قبل مبعثهم ما روى السيوطى في «الإتقان»:[1] «عن ابن فورك أنه أنزلت التوراة جملة لأنها نزلت على نبى يكتب ويقرأ وهو موسى، وأنزل القرآن مفرقًا لأنه أنزل غير مكتوب على نبى أمى» يؤخذ من ذلك أن موسى تعلم الكتابة والقراءة قبل مبعثه.

وذلك مما يدل على أن سيدنا موسى قد تثقف بالثقافة القبطية على بلاط فرعون قبل خروجه إلى «مدين» لذلك سهل أن يقرأ التوراة المنزلة عليه وأن ينسخ ما تحطم منها في الألواح بالكتابة القبطية والعبرية.

●●●

● المتنبئون:

المتنبئون أشكال وألوان منهم الكهنة كما سبق بيانه في أول الكتاب وعلى نحو ما روى البخارى أن أناسًا سألوا رسول الله ﷺ عن الكهانة فقال: «ليس بشيء» قالوا: يا رسول الله.. إنهم يحدثون أحيانًا بشيء ويكون

(١) الإتقان: للسيوطى، ١/ ٤١.

حقّاً. قال: «**تلك الكلمة من الحق يحفظها الجنى ويقرها في أذن وليه ويخلقون معها مائة كذبة**».

ومثاله عبد الله بن الصياد الذي ظهر في آخر أيام النبى ﷺ وكان يتنبأ بالغيب فيتفق بعض ما يقول حتى كاد الناس يفتتنون به فاختبره النبى ﷺ وسأله عن كيفية إتيانه الأمر فقال: يأتينى كاذبًا أو صادقًا، فلما سأله النبي ﷺ عما ادخر له -وكان قد ادخر له سورة الدخان- فقال: الدخ الدخ. فقال له النبى ﷺ: «**اخسا فلن تعدو قدرك**». فلم يلبث حتى تبين أنه كاهن من الكهان.

ولقد ظهر أمثاله في كل عصر من عصور الأنبياء الماضين.

لقد أشارت التوراة إلى مثل ذلك حيث جاء في الباب الثامن من «سفر الملوك الأول» ما نصه، «ثم قال إيليا للشعب أنا بقيت نبيّاً للرب وحدى وأنبياء البعل أربعمائة وخمسون رجلاً فليعطوا ثورين فيختاروا لأنفسهم ثورًا واحدًا ويقطعوه ويضعوه على الحطب ولكن لا يضعون نارًا وأنا أقرب الثور الآخر وأجعله على الحطب ولكن لا أضع نارًا ثم تدعون باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب الواحد الذي يجيب بنار فهو الله».

ولعل هذا هو المشار إليه في القرآن بقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ**﴾ [آل عمران: ١٨٣].

وجاء في الإنجيل في الإصحاح السابع من «إنجيل متى» في العهد

الجديد: «احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة، من ثمارهم تعرفونهم».

وفي الإصحاح الرابع والعشرين منه يقول: «ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين ولكثرة الإثم تبرد محمة الكثيرين -إلى قوله- «لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة يعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين ها أنا قد سبقت وأخبرتكم».

وروى الترمذي وغيره أن النبي ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي**».

ومصداقًا لذلك ظهر من المسلمين بعض من يتعاطون السحر بمعرفتهم أسرارًا خفيت على الكثير من الناس فاتخذوها معجزة لهم فادعوا بها النبوة، وكان لهم قرناء من الشياطين يخبرونهم بالمغيبات.

منهم مسيلمة الذي ظهر في آخر أيام النبى ﷺ وتبعه خلق كثير باليمامة، ولم يقض النبى ﷺ في أمره شيئًا حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، وبعث إليه سيدنا أبو بكر جيشًا عرمرما بقيادة خالد بن الوليد فهزموا جماعته وقتلوه.

ومنهم الأسود العنسى ادعى النبوة وكان له من الشياطين أعوان يخبرونه بمغيبات حتى صار المسلمون يخافون من أمره، فبعث النبى ﷺ إليه سرية ظفروا به بمعاونة امرأته التي تزوجها الأسود بعد أن قتل أباها.

ثم ظهر في زمن عبد الملك بن مروان رجل يسمى الحارث الدمشقى كان يعمل الخوارق ولما كشف المسلمون أمره قتلوه.

ومن المتنبئين بعض الشعراء العازفين على آلات الطرب كأصحاب الزار الذين يخاطبون الجن أو الشعراء الذين يستوحون قرناءهم في إملاء الشعر عليهم كأمية بن أبى الصلت وأحمد المتنبى.

ومن المتنبئين المضحكون الذين ليسوا سليمى الطباع، أو الدجالون الذين تستروا وراء الأغراض كغلام أحمد القادياني الذي ادعى النبوة والمهدوية معًا في الهند ولم يكن له من الشياطين غير الإنجليز.

أو كمحمد علي الذي تلقب بالباب وقام بينه وبين حكومة فارسية قتال عنيف في حروب دامية قبل أن يتغلبوا عليه.

هكذا وجدنا في كل عصر من العصور من يدعى النبوة.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

●●●

● بين النبوة والولاية:

لقد ذكرنا في أول الكتاب الأسباب التي من أجلها ختم الله النبوات بسيدنا محمد ﷺ وأكمل برسالته رسالات السماء وعقب بكتابه الكتب السماوية وأبقاه حقّاً ناطقًا تالدًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ولكن الله تعالى لما رفع بساط الوحى والنبوة والمعجزة وضع مكانه بساط الإلهام والرؤيا والكرامة في الولاية.

والولاية: هى منزلة الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

وهى منزلة الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين.

ولقد كانت هذه المنزلة موجودة قبل أيام النبوة وكان مع الأنبياء السابقين عدد من الأولياء الصالحين كالذي عنده علم من الكتاب عند سليمان. ورجل مؤمن من آل فرعون، وأصحاب الكهف وصاحب يس -ولعله المسمى عند النصارى بـ«استفانوس» -على القول بأنه ليس نبيًا ولكنه عند النصارى نبى.

والولاية ظل من ظلال النبوة وأثر من آثارها، لذلك جاز أن تكون للأولياء كرامة كلما جاز أن يكون للأنبياء معجزة.

والولى: هو القريب من الله وناصره وحبيبه، وفي الحديث القدسى «**من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ولا يزال يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى**».

قال بعض العلماء «الفرائض الإلهية رؤوس أموال العبد في طاعته لمولاه، والنوافل أرباحه التي يتقرب بها إلى مولاه وبالمحافظة على الفرائض مع زيادة النوافل يصير الإنسان وليًا».

هذا آخر الكتاب، والله أعلم بالصواب.. وإليه المرجع والمآب.

أهم المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الكتاب المقدس.

٣- الصحيحان- للشيخين.

٤- الفصل فى الملل والنحل- لابن حزم.

٥- الملل والنحل -للشهرستانى.

٦- المقدمة- لابن خلدون.

٧- الوحى المحمدى- للشيخ محمد رشيد رضا.

٨- حقائق الإسلام- للأستاذ عباس محمود العقاد.

٩- الذريعة إلى مكارم الشريعة- للراغب الأصفهانى.

١٠- دائرة المعارف للقرن العشرين- للأستاذ محمد فريد وجدى.

١١- قصة الإيمان- للشيخ نديم الجسر.

١٢- تاريخ الأديان وفلسفتها- للأستاذ طه الهاشمى.

١٣- جوهرة التوحيد وشروحها- لإبراهيم اللقانى وعبد السلام.

obeikandl.com

١٤- العقائد الإسلامية- للأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميدانى.

١٥- العقائد الإسلامية- للشيخ السيد سابق.

١٦- رسالة التوحيد- للإمام محمد عبده.

١٧- مناهل العرفان فى علوم القرآن- للأستاذ محمد عبد العظيم الزرقانى.

١٨- الأنبياء فى القرآن الكريم- للأستاذ محمود الشرقاوى.

●●●

obeikandl.com